حقيقة الأزمة اللسانيّة في العقل العربيّ: رؤية في استراتيجيات الحلّ

The Essence of the Linguistic Crisis in the Arab Mind Solution Strategies Vision

عماد الزبن

Emad AL-Zabin

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الزيتونة الأردنية، الأردن

بريد الكتروني: emadzabin@yahoo.com

تاريخ التسليم: (2013/6/20)، تاريخ القبول: (2014/4/23)

ملخص

تنطلق هذه الدراسة من افتراض وجود أزمة معرفيّة في العقل اللسانيّ العربيّ، تتقرّر بثقافة الإذعان المعرفيّ، والاسترخاء العقليّ، ويظهر ذلك باستظهار موقعنا في المشهد اللسانيّ العالميّ، الذي لا يزايل موقع التبعيّة في أكثر بصائرنا، وقد جاءت هذه الدراسة لتقف على حقيقة هذه الأزمة، من خلال تحليل العناصر المركزية لها، والتبصّر في عناصر الفَكاك من ربقتها. وتفترض هذه الدراسة أنّ حقيقة الأزمة اللسانية في العقل العربيّ الماثل هي أزمة التلقي من التراث، التي فرضتها حالة القطيعة اللسانية مع المقروء التراثيّ اللسانيّ، لذلك تقترح هذه الدراسة تقرير استراتيجيات كشف لسانيّ في التراث العربيّ، من شأنها الكشف عن المقروء اللسانيّ التراثيّ، واستنباط المقولات اللسانية الكامنة فيه، وهذه الغاية تفرض عمليات حفز منظمة للدراسات التراثية البنائية، التي تستنبط المقولات اللسانية التراثية، من أجل البناء عليها في عملية تعاقبية منهجية، تضمن نفي تكرار الجهود، وبناء نظريات لسانية ذاتية، منتمية إلى سياقنا الثقافيّ الخاصّ. وباستظهار الغاية الآنفة؛ توصي الدراسة برفد هذه الدراسات التراثية البنائيّة بعناصر التطوّر المعرفيّ، من خلال تقرير الإيمان بدورها في إنشاء النظرية اللسانية العربية، ومن خلال النقد البناء الذي يمدّها بأسباب التقدّم والتطوّر، ويحافظ على بقائها وديمومة الاستفادة من مددها المعرفيّ. وتتبصّر الدراسة في تقرير منهج تعاقبيّ، من خلال البناء على المقولات اللسانية التي تكشف عنها الدراسات التراثية البنائيّة، وتفترض أنّنا بتقرير استراتيجيات التفاعل مع المعطيات العلميّة والتكنولوجية والعلوم الأخرى، والتفاعل مع بصائر الآخر اللسانيّة، سنصل إلى نظريات لسانية ذاتية، منتمية إلى السياق الثقافيّ الخاصّ، والأنساق المعرفية والفكرية الذاتية، التي من شأنها أن تجعلنا حاضرين في المشهد اللسانيّ العالميّ، ومشاركين في تقرير البصائر اللسانيّة في العقل الإنسانيّ.

Abstract

This study assumes that we are suffering from a crisis of knowledge in the Arab linguistic mind as a result of the linguistic acquiescence and the mental sluggishness. This case occurs by the revealing our position in the global linguistic efforts that does not leave a dependency case in many of our researches. This study aims to explain the essence of the crisis by the analysis of its essential elements and searching in the elements of its solution as well. The study assumes that the essence of the linguistic crisis in the current Arab mind is a crisis of receiving from the Heritage. The crisis imposed by the case of estrangement with our linguistic heritage. Therefore, this study proposes the preparation of strategies of linguistic search in the Arab heritage; these strategies are able to demonstrate the knowledge in linguistic heritage and the elicitation of embedded linguistic theories. This -in turn-motivates the structural heritage studies eliciting the linguistic theories of heritage for a reliable successive methodological process that ensures non-redundant researches and building our own linguistic theories which belong to our Special cultural context. Revealing the above mentioned purpose has emphasized the fact of providing the structural heritage studies with elements of scientific development through a solid faith in its role in establishing the Arab linguistic theory and through the constructive criticism that provides the motives of the progress and development that maintain their survival and ensure the sustainable benefits of the study. This study also proposes a successive and methodological process by building on the linguistic theories revealed by the structural heritage studies. Simultaneously, It assumes that we can create our linguistic theories that belong to our cultural context and our intellectual patterns by devoting the strategies of the interaction with the scientific and technological fields and other sciences and by interacting with the linguistic theories of the other. Having said that, we will be able to achieve our own linguistic theories that belong to our own cultural and intellectual contexts. These will enable us to be an effective element in the global linguistic scene and real partners in determining the linguistic theories of the human mind.

المقدمة

فتنطلق هذه الدراسة من افتراض ثبوت أزمة حقيقية في العقل اللسانيّ العربيّ الماثل، وتسعى في سبيل تنظير الأزمة اللسانية في العقل المعرفيّ العربيّ، من خلال تفكيك هذه الأزمة، والوقوف على العناصر المركزية لها، والتبصّر في عناصر الفَكاك، وتفترض هذه الدراسة أنّ عقلية الاسترخاء الفكريّ، وحالة الإذعان المعرفيّ التي يعيشها العقل العربيّ الماثل في ميادين المعرفة كافّة، تذهب به إلى مذاهبِ التبعية، وتنتسف وجودَه الحقيقي من حيّز المثول الفعّال في المشهد اللسانيّ العالمي، وعلى الطرف الآخر؛ فإنّ عقلية التّحجُّر الرافضة لكلّ ما يأتي من تبصّر الآخر، تحرم العقل اللساني العربي من هوامع المعرفة العالمية، التي تسقي بذور الانبعاث اللسانيّ العربيّ، وبناء على هذا التنظير فلا بدّ من علاج تينك العقليتين اللتين تعوقان مثول العقل العربي في المشهد اللساني العالمي.

وتحاول هذه الدراسة الكشف عن أصول البحث اللساني التراثيّ، وما يحيط به من عوامل الدعم أو التثبيط، وتقرير شروطه المعرفية، وتدعو إلى دعم الدراسات اللسانية التراثية بالنقد البنّاء، الذي يضمن صحة البحث، وجودة النتائج، وترى في الدراسات اللسانية التراثية البنائية العاملَ المركزيَّ الذي يحقّق رؤية لسانية ذاتية، تنتمي إلى سياق ثقافيّ خاصّ.

وقد تقرّر التبصّر الكشفي في هذه الدراسة من اقتراح حالة تعاقب لسانيّ، تُبتنى على المقولات اللسانية الكلية والفرعية، التي تظهرها الدراسات اللسانية التراثية البنائية، وتخضع للفحص المنهجي والمعرفيّ الذي يكشف عن مناهج النظر اللساني في التراث، وهذا أمر من شأنه منع تكرار الجهود، والبناء الصحيح على موجود معرفيّ لسانيّ تراثي، مصحح للانطلاق نحو النظرية اللسانية العربية المنتمية إلى سياقها الخاصّ، الدافعة إلى الشراكة اللسانية في المشهد اللساني العالمي.

لقد حاولت هذه الدراسة في جميع فصولها أن تقرّر رؤيتها في أنّ أزمتنا اللسانية تكمن في استراتيجيات التلقي من التراث اللساني العربي، لأنها السبيل إلى إنشاء البصائر اللسانية الذاتية الفعّالة في سياسية التغيير اللسانيّ، من موقف المتّبع إلى موقف المشارك، ولذلك حرَصتُ على توسيع دائرة البحث اللساني في التراث، من خلال الدعوة إلى شمولية المصدر اللسانيّ التراثيّ، وعدم الاقتصار على جهود اللغويين فقط، وكانت في تسيارها تستحضر هدف الانبعاث اللسانيّ العربيّ، القائم على وجود نظريات لسانية عربية منتمية إلى سياقاتنا الثقافية والفكرية الخاصة.

وتجدر الإشارة هنا إلى دراسة سابقة تلتقي هذه الدراسةُ مع محاورها العلميّة في المباحثة والكشف العلميّ، وهي دراسة حافظ علوي الموسومة بـ: اللسانيّات في الثقافة العربيّة المعاصرة، ودراسة علويّ هذه سعت في سبيل توصيف الأزمة اللسانيّة في المحيط الفكريّ العربيّ، وردّت هذه الأزمةَ إلى أصول تتلخّص في استراتيجيات التلقي من الآخر، وقد تلاقت دراستي في الرؤية معَ دراسة علويّ ولكنّها خالفتها في مصدر التلقي، لأنني أفترض أنّنا نعاني من أزمة تلقي من التراث العربيّ، وليست قضية تلقي من الآخر، وأفترض أنّ حلّ هذه الأزمة يكون بحسن إدارة التلقي من هذا العقل التراثيّ.

حقيقة الأزمة اللسانية العربية

يقترح توماس كون (*Thomas.kuhn*) في محاولة تقرير ماهية الأزمة، ما أسماه بنظرية البراديغم (*Paradigm*) وهي: "مجموعة القوانين والتقنيات والأدوات، المرتبطة بنظرية علمية والمسترشدة بها،والتي بها يمارس الباحثون عملهم، ويديرون نشاطاتهم، وحالما تتأسس تتخذ اسم العلم العادي"[(1)] وما زالت الظواهر العلمية الطارئة يمكن تفسيرها، والكشف عن جوانبها بهذه الأدوات، فلا توصف الحالة العلمية وقتئذ بالتأزم، فالبراديغم بهذا المفهوم، يقدم كشفاً عن ظاهرة علمية متوقعة، وما دام خطّ الاطّراد في الكشف والتوقع مستمراً، يظل هذا النموذج (= البراديغم) صالحاً للممارسة العلمية والمنهجية، فإذا كشف البحث عن ظاهرة تخالف الآراء المستمرة والسائدة في النموذج العلميّ المعمول به، أدى هذا إلى مراجعةٍ نظريةٍ في هذه النماذج السائدة، وربما حلت مكان النظريات السائدة نظريات جديدة؛ فيبدأ العلم مسيرة جديدة على وفق أفكار جديدة، من خلال الانتقال إلى نموذج (= براديغم) جديد، يخالف تماماً النموذج المألوف، وهنا تتقرّر الأزمة العلمية، بمعنى أنّ الأزمة العلمية مرتبطة بظاهرة عدم توقع، ظاهرةٍ لا تتسق مع قواعد العلم العادي ومقتضاياته المنهجية[(2)].

إذن تستدعي حالة التأزّم هذه، ضرورةً، مرحلة انتقال من النموذج المأزوم إلى نموذج جديد، يكون منتجاً لتقليد علميّ جديد، بمعنى أنّ النموذج الجديد المقترح يؤول بعد نجاحه في التغلب على الأزمة، وبعد نسبة من الاستقرار والتجريب، إلى علم عادي، أو قل: نموذج جديد مناف للسابق ناقض له أو لبعض جوانبه، فمرحلة الانتقال هذه تمثل إعادة بناء الحقل المعرفيّ من أسس جديدة، وقد تغيّر بعضاً من أهم الكليات أو المقولات التي كان قد أنتجها تطبيق النموذج السابق[(3)].

ويظهر هنا سؤال مركزي: ما طبيعة الأزمة اللسانية العربية ؟ يقرّر حافظ علوي أنّ العناصر الرئيسة لمفهوم الأزمة، تقود إلى وجود اختلاف بين هذا المفهوم، والوضع الذي تعيشه اللسانيات في الثقافة العربية، ويرى أنه "ليس من المعقول أن نتحدث عن أزمة علم ما ومآله بالقفز عن مراحل تشكله الأولى، وما ينتج عنها من إشكالات، فالأزمة عادة ما تكون نتيجة لا سبباً، وحتى وإن صحّ الحديث عن أزمة، فإن إدراك حقيقتها لا يمكن أن يكون إلا بجعلها أزمة انطلاق لا أزمة نمو"[(4)].

وإذا أردتُ تقديم مقترح لتحرير أزمة اللسانيات العربية، فإنني أتجاوز مرحلة التشكّل الأولى، وأفترض تقرّرها في التراث، ضرورةً؛ إذ يأبى المنهج العلميّ أن نقيم حدود علم اللسان

(1) كون، توماس (2007) بنية الثورات العلمية، (ط1)، ترجمة: حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت. الملاحق ص 304.

(2) المصدر نفسه ص159 الملاحق 346 - 347. وينظر علوي، حافظ اسماعيلي (2009)، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، (ط1) دار الكتاب الجديد، بيروت. ص 58.

(3) كون، بنية الثورات العلمية ص170.

(4) علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة. ص62.

على وفق الصياغات الغربية الحديثة وحسب، ثم نجعل من هذه البصائر الغربية الحديثة منطلقاً مرجعياً للقبول والإقصاء في الوصيد اللسانيّ العام، وهذا منزلق منهجيّ ربما تتيه فيه أنظار بعض الباحثين، فهذه البصائر اللسانية الحديثة تمثل نتائج مراحل انتقال متعاقبة، أفرزتها أزمات علمية متلاحقة، والنظر الكاشف في تلك المراحل المتعاقبة وفي استراتيجيات التغير اللسانيّ في النماذج (البراديغميات اللسانية)، يسعف في تطوير النماذج اللسانية الحاضرة، وضمان كفايتها في معالجة القضايا اللسانية، وقدرتها على الولوج عميقاً في المشكلات المعرفية والإنسانية العامة.

ونحن أمام إرث من المقولات اللسانية العربية الكامنة بالقوة، تتمثل الأزمة الحقيقية في عدم البناء عليها، وتركها في محاضن الإهمال، والاتجاه إلى الصياغة اللسانية الغربية على صفة التسليم بصحة النظرية، والانتقال إلى مرحلة التطبيق والإسقاط، لا على صفة النقد المنهجيّ والقبول والرد، بنظرية تشاركية قائمة بيننا وبينهم، فالإشكال في أنّنا لا نحسّ بالأزمة إلا إذا فهمنا نظرية غربية، ثمّ لم نجدها ماثلة في واقعنا اللغويّ العربيّ بكليتها، مع أنّ أزمتنا الحقيقية في التقابل مع البحث اللسانيّ التراثيّ، فإشكالات تلقي مقولات التراث اللسانية ألصق بأزمتنا من إشكالات تلقي كليات علم اللسان الحديث، لأنّنا في الطور الثاني في موقع المنفعل والمستهلك، وليس الفاعل المنتج[(1)]، ومن المتقرر أنّ أزمة المستهلك تختلف عن أزمة المنتج، وأما في الطور الأول فنحن أمام إرث لسانيّ عربيّ معطّل، تدور معادلة الوجود اللسانيّ بيننا وبينه على حكم التلازم، فوجودنا اللسانيّ الحقيقيّ مرتبط في البناء عليه، وأما الوجود الصوريّ الحاضر، فهو خارج هذا الطرح، فالمشكلة العربية اللسانية تكمن في سير تعاقب النماذج اللسانية العربية، الأمر الذي ولّد فراغاً معرفياً تنبّه إليه بعض اللسانيين، فحاولوا سدّ هذه الثغرة بالاستسلام للموجود اللسانيّ الغربيّ، وعدّه منهجًا كلياً في التطبيق، فكان وُكْد أكثرهم في تفهّم النموذج اللسانيّ الغربيّ القائم، ثم تفعيله في المشهد اللغويّ والثقافيّ العربيّ، الذي يخلو من عناصر القبول والرفض[(2)].

وما كانت حالة الإذعان المعرفيّ هذه لتطور شيئا في مساحتنا الثقافية واللغوية؛ لأنها قامت على فساد في العلاقة بين هذه الأفكار اللسانية فيما بينها، وبين هذه الأفكار وعناصر البنية الثقافية لرقعة استعمالها، ولا بدّ أن يولّد هذا التفاعل السلبيّ حالة من الاضطراب الفكريّ، يطال بخطره ما أسماه مالك بن نبي: الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة[(3)]، فلا تصلح هذه الأفكار

(1) مصلوح، سعد (1992)، الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية، (ط3)، علم الكتب، القاهرة. ص12.

(2) قد يلح هنا مطلب علمي بكسر طوق التنظير؛ وذلك بمعالجة أمثلة مشخّصة، وأنا أحيل في هذا المطلب إلى دراسة حافظ اسماعيلي علوي (اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة)، الذي عالج أنظار اللسانيين العرب من لدن الوصفيين إلى الوظيفيين، روماً للاختصار وهروباً من مغبة تحصيل الحاصل.

(3) يقصد بالأفكار المطبوعة: الأفكار المؤسِّسة للنموذج المعرفيّ المثالي (عناصر بنيوية أصلية في النظرية)، أما الموضوعة: فهي التوافقات الخاصة بالأفراد والظروف، التي تطرأ على تلك البنية الأصلية. ينظر: ابن نبي، مالك (1992)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، (ط1)، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر المعاصر، بيروت. ص 65 - 68.

الموضوعة الوافدة لتحلّ محلّ الأفكار الموضوعة العربية، المتولّدة عن علاقة عضوية بالأفكار المطبوعة الغائبة أو المغيبة في الدوائر اللسانية العربية، ومن جهة أخرى تقضي هذه الأفكار الموضوعة الوافدة، في حال ديمومة إدماجها في العقل الثقافيّ العربيّ، باستمرار كمون أفكارنا اللسانية. والأفكار الموضوعة الماثلة حين لا يكون لها "جذور في الغلاف الثقافيّ الأساسي، تصمت هي بدورها؛ إذ لم يعد لديها ما تعبّر عنه، ثم لأنّها لم تعد تستطيع أن تعبّر عن شيء"[1] لأنها فقدت المحرّك الفاعل لها، وأقصد به: الأفكار المطبوعة المؤسِّسة للعقليّة اللسانية؛ فتضمحل هذه الأفكار وتذوي، وربما تموت وتغيب، ولكنها تترك وراءها هوة حفرها حَراك الزمن، بيننا وبين اللسانيين الذين أسّسوا رؤاهم بالبناء على وعي لسانيّ إبستمولوجيّ؛ فتتراكم عندنا أزمات النمو والتدارك.

إن فاعلية عقليتنا اللسانية مرتبطة بنوع الاتصال بهذه المناهج الغربية، والاتصال بهذه الأفكار الموضوعة المتولدة من التأثر بهذه المناهج، لكن يجب أن يكون هذا الاتصال مرتبطاً بمعنى التشاركية في الإنتاج اللسانيّ، وهذا يقتضي أن نقدّم لهم من البصائر اللسانية ما يكفُل إدراجنا في جداول الفاعلية اللسانية العالمية، وهو أمر لا يكون، في تقديري، إلا بفحص المقولات اللسانية التراثية (=الأفكار المطبوعة)، بمعزل عن الموجود الغربيّ، أقصد بمعزل عن منهج المقارنة، وبمعزل عن مطلب تجذير الأنظار اللسانية الحديثة في التربة التراثية، ثم الخروج بنظريات لسانية حديثة (الأفكار الموضوعة المنتمية الفاعلة). إنّها حالة من استئناف الانطلاق، لا مطلق انطلاق، وفتح لباب التسلسل المعرفيّ اللسانيّ الكامن أو المجمّد، واستفزاز للأفكار المطبوعة لتَنتج منها أفكارنا الموضوعة الذاتية، نريد الانتقال بأفكارنا اللسانية الموضوعة من حالة الكمون أو الوجود بالقوة، إلى حالة الوجود بالفعل.

ولعل هذا الفحص التجريديّ قد أفضى إلى تصوّر أوليّ عن حقيقة الأزمة اللسانية العربية، لأن موت الأفكار، أو جمود تدفّق النماذج الفكرية على وفق سلسلة تراكمية ذاتية، يُسلم إلى عجز معرفيّ عام، يطال كلّ محكوم لسلطان العقل والفكر[2]، وهذا العجز لا تعالجه العقلية الاستبدالية، ولا منهج التعويض[3] الذي مارسه كثير من اللسانيين العرب، ويكفي بالوجدان دليلاً على هذه الأطروحة.

عقبات في طريق البحث اللسانيّ العربيّ

لعل الإطلالة الآنفة تبيّن، نظرياً، حقيقة المشكلة اللسانية العربية التي فرضها حال من الجمود المعرفيّ في ميادين المعرفة كافّة، في أمد تاريخيّ آنف؛ فاندفع النهضويون لكسر طوق الجمود بالانفتاح على البحوث اللسانية الغربية، من غير الرجوع، في أغلب المحاولات، إلى استنطاق الإرث اللسانيّ العربيّ.

---

(1) ابن نبي، مالك. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ص74.
(2) يقول مالك بن نبي: "وحتى اللغات تستسلم للعجز" مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ص66.
(3) أقصد بالتعويض الاعتماد على الموجود اللساني الغربي عوضاً عن المنهج اللسانيّ العربيّ المفترض.

وبتقرير هذه الرؤية، فأنا أوافق (حافظ علوي) على أنّنا نواجه ما أسماه بمشكلة التلقي، لكنّني أقترح توسيع دائرة المشكلة؛ فشمولية البحث في مشكلة التلقي أساسٌ علميّ، يؤسّس للنظر في حلّ هذه الأزمة، فليس أمر التلقي مرتبطاً بطرائق مواجهة المعرفة الغربية فقط، بل في ضيق التلقي من المنابع المعرفية التراثية العربية أيضاً؛ الذي يؤسّس لدفع عجلة التعاقب المعرفيّ اللسانيّ الذاتيّ، وهذا نداء بشمولية المصدر اللسانيّ.

ومن تمام الفائدة أن أحاول تصوّر العقبات التي تعترض البحث اللسانيّ العربيّ الماثل؛ مسترشداً بما تحصّل من بحوث اللسانيين العرب في هذه المسألة، ويمكن في هذه المسألة أن نقسم هذه العقبات قسمين:

أولاً: عقبات موضوعية علائقية.

ثانياً: عقبات موضوعية عوائقية.

أولا: عقبات موضوعية علائقية

أما العقبات الموضوعية العلائقية، فهي أشبه بمتّجه نفسيّ حضاريّ، يعلق بالنفس من جراء حصر الرؤية المعرفية بسبيل ثقافية واحدة، فإنّ الشعور باكتمال علوم اللغة عند العرب، والشعور بأننا نستجمع إرثاً لغوياً يُعدّ من أوسع ما تخلفه الأحقاب الحضارية لمن بعدها، يولد شعوراً، بل قناعة، بأنّ علوم اللسان في محيطنا العربيّ نضِجت واحترقت، وبأنّ العرب قد أتوا على هذه المادة اللسانية جمعاً وتمحيصاً وتفهّماً[1]، فإذا كان العربيّ قد أذعن لحالة التبعية في علوم الطب والهندسة والفلك وغيرها، فإنه بات يرفض هذا الإذعان في علم ما زال معتلِقاً في نفسه تميزه فيه عن باقي الأمم[2]، فإذا انضاف إلى هذا ما هو قارّ في نفس العربيّ من تميّز لغته عن باقي لغات العالم؛ انسحب هذا التميز إلى البحوث اللغوية التي أنتجتها العقلية العربية المرتبطة بهذه اللغة المتميزة؛ فيُنتج هذا التراكم النفسيّ والحضاريّ خطاً فاصلاً بين العقل العربيّ ومناهج البحث اللغويّ عند الآخر، ويتحول التراكم المعرفيّ التراثيّ إلى دوائر القداسة والعصمة المعرفية، ويدّغم في ضمير هذه الجماعة اللغوية ادّغاماً بنيوياً؛ فيُثبّت في بنائهم الثقافيّ والحضاريّ هوية التميز، وتميّز العقلية، والعنصر المركزي للبقاء والاستمرار، إنّ المعطى التراثي ههنا يتحول إلى ما أسماه بعض الباحثين عقلية الوصاية[3].

---

(1) المسدي، عبد السلام، (1986). اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. ص 12-13.

(2) يراجع هنا تبصر المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص 12- 13.

(3) ينظر: حرب، علي (2001) أصنام النظرية وأطياف الحرية، (ط1)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. ص9. ويقول عن عقلية الوصاية: "تعني الوصاية أنّ صاحبها يجسد بالنسبة إلى الناس والمجتمع أو إلى الأمة البشرية: الوعي والضمير، أو العقل والاستنارة، أو المعنى والقيمة، من هنا يتعامل الأوصياء مع أنفسهم بوصفهم النخبة والصفوة المختارة".

ويتصل بهذه العلائق النفسية والحضارية ما يصاحب الجديد الوافد من تهيب وريبة، وخوف على المنجز الحضاري التراثي، لا سيما إذا كان هذا الجديد سريع التطور وسريع التقدم والتغير، وتصعب ملاحقته؛ فيميل العقل والضمير إلى النفور منه وإقصائه[1].

والأمر الذي يعزّز المتّجه النفسيّ النافر من هذا العلم الوافد تهافت غير القادرين من ذوي المعارف المحدودة على الانتساب إليه؛ فتقاومه البيئات العلمية المحافظة؛ إذ تشعر بعجز القائمين على هذا العلم والمتحمسين له عن تقديم نظرية متماسكة قادرة على تغيير التصورات الراسخة عن ضعف هذا العلم، وتغرّبه عن النسيج الثقافيّ الذاتيّ، ويزيد أمر التقبل صعوبة وعسراً، ما تشتمل عليه العقلية العربية من مسلّمات تكبح التصوّر النقديّ عن الانطلاق في شتى الميادين[2].

ويدعم هذا المتجه أيضا ما عليه المذاهب اللسانية من اختلاف جوهريّ، يصل أحياناً إلى حدّ التعصّب والإقصاء وعقلية الوصاية؛ فتنحصر أسباب العمل اللسانيّ الحديث بإثبات النظر القائم ودحض النظر المقابل، وهذه الحالة تقصي هؤلاء اللسانيين عن تقرير اندياح دوائر المقولات اللسانية في الثقافة العامة؛ فتبدو اللسانيات عاجزة عن الإسهام في حل المشكلات اللغوية والمعرفية ذات الارتباط الوثيق بموضوعها، ولا تتدخل في المشكلات الناشئة عن التنوّع الثقافيّ، ولا تمتلك الأدوات والآليات الكفيلة بإيجاد مخرج لكثير من المشكلات المطروحة[3]، فاللسانيات التي لا تقدّم إجابات عن التساؤلات المعرفية الكبرى في المشهد الثقافيّ العربيّ، لن تتمكن من إقناع النخبة العربية بجدوى النظر فيها، أو قيامها على معنى التشاركية مع الموجود المعرفيّ التراثيّ المتضخم في عقلية هذه النخبة.

ثانياً: عقبات موضوعية عوائقية

وبعيداً عن الوسط النفسيّ، تظهر العقبات الموضوعية العوائقية، التي يمكن تصنيفها وفرزها على أساس ماديّ يتمثل في الآليات والأدوات والخطوات العلمية، والخطط المتبعة، وأول مظهر يستحقّ التوقّف والنظر الفاحص هنا التآليف اللسانية العربية، أو الكتابة اللسانية التي من شأنها تقرير هذا العلم في النفوس، وتوضيحه والدعوة إليه.

فأول عائق في وجه البحث اللسانيّ العربيّ لغة هذا البحث، فكثير من البحّاثة العرب يعمِدون عن وعي واختيار إلى الكتابة بلغة أجنبية، وهذا أمر قد يكون فيه محظور علميّ ومحظور مبدئيّ، يعوق عملية التقبل[4]، فهو في أغلبه، يخاطب غير العقلية العربية، فلا يكون له كبير شأن في تقرير مفردات هذا العلم في هذه العقلية، فضلاً عن كونه يرسّخ علائق نفسية إقصائية، تثبّت في نفس المتلقي غربة هذا العلم عن وسطه الثقافيّ المستعلِن بلغته ولسانه.

(1) مصلوح، الأسلوب، ص 13.
(2) المصدر نفسه، ص 13.
(3) علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص81.
(4) المسدي، اللسانات وأسسها المعرفية، ص17.

أضف إلى هذا، أنّ كثيراً من هؤلاء اللسانيين العرب يكتبون بأسلوب غير عربيّ، وإن كتبوا بحروف عربية؛ فيصعب فهم مرادهم، وإذا سِيم القارىء العربيّ فهم جملة من كتبهم عضِلت به؛ فيكثر الحشو والتعمية والترجمة الحرفية لبعض فصول الكتب الأجنبية؛ فيعسر فهم الفكرة التي تكون موجودة في السطور بالقوة لا بالفعل، وقد يعمِد بعض اللسانيين إلى تعوير المسلك عن وعي منه، ظناً منه بأنّ هذا يقنع القارىء بعلمية ما يكتب؛ فينفر كثير من الناس من متابعة القراءة في هذا العلم إيماناً منهم بأهمية الوقت الذي ينفقونه بلا طائل.

وينضاف إلى ذلك مشكلة المصطلح، فهذا العلم الحديث لم يستقرّ، في أكثر تطبيقاته، على مصطلحات ثابتة وكاشفة وواضحة، فضلاً عن كونها مضبوطة وجامعة، وأكثرها تتعدّد ترجماته وتتباين مقترحات تعريبه، فليست المصطلحات في هذا العلم "عالمية ؛ فلا بدّ من التنبيه في كل حال إلى المقصود بالمصطلح في السياق الذي يقع فيه، وعند الكاتب الذي يستعمله"[(1)]، فيقلّ أن يخلوَ بحث لسانيّ، أو أطروحة لسانية من ثبَت طويل ثقيل من المصطلحات المستعملة، وقد يكون بلغات متعددة، ومردّ هذا الأمر إلى الذاتية والارتجالية في إنتاج هذه المصطلحات، "فلا يزال الرصيد الفنيّ للسانيات العربية في مجال الدراسة المصطلحية يشكو من عقبات حقيقية، لغياب رصيد اصطلاحيّ مشترك يوحّد اللسانيين ويؤلف بينهم، فرصيدنا المصطلحيّ في مجال اللسانيات يبدو ضرباً من الأهواء النابعة من الميول والابتكار الشخصيّ الذي لا يتقيد بمنهجية دقيقة"[(2)]، وأضيف إلى مشكلات المصطلح اللساني قضية تغيير المصطلح الماثل، وإن كان صالحاً للإشارة إلى المحتوى العلمي، بمعنى أن اللسانيّ العربيّ يشفق أحياناً من استعمال المصطلح العربيّ التراثيّ وإن كان صالحاً للتعبير عن المتداول العلميّ المراد، فيسعى بكل جهده إلى إسقاط مصطلح جديد ربما يكون منحوتاً من غير لغة واحدة، أجلَ التميّز عن الآخرين، أو إشارة منه إلى سعة اطلاعه على ثقافة الآخر فلا يتقبّل القارىء العربيّ هذا المصطلح تقبلاً عقلياً أو نفسياً كافياً، وهذا من شأنه أن يعمّيَ الفكرة، ويوقع المتلقي في اضطراب وتيه.

وقريب من هذا ما نجده في كتب القوم من الإحالة على كتب أجنبية بلا طائل علمي إلا الإشارة إلى اتّصاله بهذه الكتب ومعرفته بها وبلسان مؤلفيها، ففرق بين من يُحيل على كتاب أجنبيّ لأنه مصدر المعرفة، وبين من يُحيل على كتاب أجنبيّ مع صحة الإحالة على كتاب عربيّ في المحيط المعرفيّ نفسه، لا سيما وهو يخاطب محيطاً عربياً[(3)]، وتحت هذا الكم من المصطلحات المضطربة، والترجمة المتضاربة، والذاتية المنغلقة في اجتراح المصطلح، من خلال الاصطلاح مع الذات، والدعوة للذات الكاتبة، لا للأفكار المكتوبة، تحت كل هذه

---

(1) السعران، محمود، علم اللغة: مقدمة للقارىء العربي، دار النهضة، بيروت. ص 82.

(2) علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص83.

(3) يقول سعد مصلوح: "وتخرج هذه الرسائل وقد ذيلت بقائمة (كذا) طويلة من المراجع الأجنبية، ينوء القليل منها بأفهام العصبة أولي القوة، ورصّعت تضاعيفها بالمصطلحات الأجنبية وأعلام الفرنجة على نحو ظاهر الدعوى، وإن من أصحابها، وقد عشت بين ظهرانيهم ربع قرن أو يزيد، من إذا سيم قراءة جملة واحدة بلغة أجنبية سيارة في كتاب مدرسي لأعنته ذلك، فما بالك بمصنفات اللسانيات المعاصرة" الأسلوب. ص 18.

الاضطرابات يغيب الفهم الدقيق في بعض الأحيان لهذه البصائر الحديثة، ومع غياب الفهم يغيب التقبل والقناعة.

ومن المشكلات الموضوعية العوائقية في البحث اللسانيّ العربيّ في إطار شكل المادة المدروسة ومضمونها[1] ازدهار الدراسات القطاعية، وضمور الدراسات النظرية، يقول عبد السلام المسدي: فاللسانيات علم يتأسّس على جِذع كليّ يتفرّع أفناناً بحسب المشارب وحقول الاهتمام، وذلك الجذع في كل المعارف هو الجانب النظريّ من ذلك العلم، وبينما اشتغل اللغويون العرب بفروع المعرفة اللسانية في جوانبها الصوتية والتركيبية والدلالية، قلّ اهتمامهم بالجانب النظري، إذ اقتصر على جانب التعريفات؛ فضمر الإبداع التنظيري؛ فخفيت أبعاد البحث اللسانيّ المعاصر[2] ولعلّ هذا ما يفسّر اختلاف بعض اللسانيين العرب في الحدود المعرفية التي تدخل في هذا العلم أصلاً[3]، فالخلاف قائم في حدود السور المعرفيّ لقضايا هذا العلم، وهذا الغياب التنظيريّ التأصيليّ يجعل هذا العلم يتماهى في أذهان أكثر متلقيه، وهذه مشكلة أصلية خطيرة تخصّ أهمّ ما يميّز أي علم من مبدأ الجمع والمنع، أو الاطّراد والانعكاس بلسان المناطقة، ولعلّ لغياب علم المنطق وتغييب الفلسفة عن الدرس اللسانيّ العربي، أثراً سلبياً واضحاً في المشكلات الإبستمولوجيّة التي تعانيها اللسانيات العربية، المتمثلة في قلة الضبط واضطراب الرؤى المنهجية، "حتى كاد المتتبع من المريدين ألا يتصوّر للسانيات آفاقاً كلية تنحو بها منحى المعارف الكونية، وما لم يُروّض الذهن برياضة العقل الخائض في قواعد العلم ومعادلاته، فيسلك سبيل المتاهات؛ بحثاً عن منافذ الجوهر، فاتحاً أقفالها بما يؤسّس لها منطقاً هو المنطق النوعيّ لذلك العلم، تنكشف به أسراره، وتتركب عليه بنيته؛ فإنّ العلم المخصوص يضيق عن استيعاب نواميس العقل المدرِك؛ فيعجز عن شده إليه[4].

(1) عيّاشي، منذر (1991) قضايا لسانية وحضارية، (ط1)، دار طلاس، دمشق. ص14.

(2) المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص19- 20.

(3) يرى محمد الأوراغي أنه "لا يشترط في عمل ذهنيّ لكي يدخل في ما يخلفه تحت اللسانيات سوى أن يتخذ اللغة موضوعاً، ووصف بنيتها هدفاً، فلا اعتبار لأن يكون موضوع التأمل لغة بعينها، أوكلّ اللغات أو بعضها، ولا أن يكون ذلك التأمل خاضعاً لمنهجية بعينها، أو تكون منطلقاته مؤصّلة في حقل معرفيّ دون غيره، أوأن يكون إنجاز العمل واقعاً في هذا الظرف دون ذاك، أو له هذا المطلب دون سواه، وعليه يمكن أن نتصور اللسانيات علماً موضوع دراسته اللغة، وهدفه صوغ المعرفة الحاصلة ببنيتها، بحيث يؤدي استعمال تلك البنية إلى تحقيق غايات محتملة" الأوراغي، محمد (2001). الوسائط اللغوية: أفول اللسانيات الكلية، (ط1)، دار الأمان، الرباط. ص32 الهامشة (1).

(4) المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص19- 20. واقرأ كلام المسدي في: قضية عودة المشاغل اللغوية ذات الطابع الفلسفي التجريدي إلى حقل الدراسات اللسانية؛ حتى أصبحت تتبوأ منزلة محورية في تفكير اللسانيين المحدثين، وهذا يمثل تحولاً أصولياً في قواعد علم اللسان الحديث. المسدي، عبد السلام (1981). التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس. ص16. ويرى تشومسكي أنّ الدراسات اللغوية لا يمكن أن تستغني عن اللجوء إلى المنطق لصياغة النظريات، وأنّ البحث في مجال المنطق قد أدّى إلى معرفة مفاهيم بديهية حول استعمال اللغة. انظر: زكريا، ميشال (1982). الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية، (ط1)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت. ص11.

ويحدد سعد مصلوح في هذا المجال، خمسة مظاهر للخلل الواقع في المادة اللسانية العربية المدروسة، في صعيد الكتابة اللسانية، وهي[1]:

الأول: اشتمال المكتبة اللسانية العربية على كمّ هائل من المقدمات أو المداخل إلى علم اللغة أو اللسانيات، ولا يكاد يمتاز بعضها عن بعض من حيث الغاية؛ فانتفت فيها مظاهر التفرد والخصوصية، وصار غايتها ملاحقة تطور هذا العلم، والصياغة الخصبة المنتجة لحقائق العلم، وتنوّع الانتماءات اللسانية، وأين هذا مما نحن فيه من مداخل ومقدمات ؟

الثاني: عجز اللسانيات العربية، لا سيما في العقود الثلاثة الأولى من نشأتها، عن أن تعكس خريطة شاملة للاتجاهات اللسانية الحديثة في أوروبا، وهي خريطة معقدة إلى حدّ كبير، فاللسانيّون العرب الأول، كانوا ينقلون الآراء اللسانية وكأنها نظريات مضبوطة وثابتة وموحّدة، والحال أنّ الاتجاهات اللسانية كانت تقوم على معترك جدليّ يخوضه أهل المذاهب اللسانية المتباينة؛ لذلك أنتجت هذه الدراسات حجاباً أخفى حقيقة الحَراك اللسانيّ.

الثالث: اللسانيات العربية لم تتصدّ للمشروعات القومية الكبرى، ولم يفلح المشتغلون بها في إقناع المؤسسات العلمية والثقافية المعنية بجدوى مباحثها المختلفة.

الرابع: مشكلة ترجمات الأعمال اللسانية الغربية، التي يكتنفها كثير من الارتجال والاصطفاء أو المصادفة، وكثير منها يؤثر السلامة بالسهولة، وبعضها يكابد مشقة السيطرة على الفكرة في أصولها[2].

الخامس: كثير من التصانيف اللسانية العربية، هي ترجمة أشبه بتآليف أو تآليف أشبه بترجمة، وفيها محاذير لما تنطوي عليه في الغالب من تشويه الأصول، ومن عقد الصلة بين الأفكار لأدنى ملابسة، ومن تلفيق ظاهر، في أكثر الأحيان، بين معطيات العلم الوافد والعلم الموروث.

وعليه فالكتابة اللسانية العربية الحديثة في أغلب الموجود اللسانيّ، تتّسم بالتبعية في: شكلها ومادتها وأطروحاتها ومضامينها، وكثير منها موقوف على مجرّد ملاحقة الاختلافات اللسانية الغربية، ومتابعة التطوّر في تلك البصائر، وهي مع ذلك عاجزة عن هذه الملاحقة وهذه المتابعة، والدراسات التي تربط البحث اللسانيّ بالتراث، هي في أكثرها، حالات تلفيقية (بحسب مصلوح)، تسعى إلى تطويع الموجود التراثيّ للمقولة اللسانية الماثلة، فلا عجب، والحالة هكذا، أن تعيش الحالة اللسانية العربية الحديثة مرحلة تقصير واضح في وضع النظريات اللغوية، وإنتاج المقولات اللسانية، وابتكار المناهج الاختبارية، وأن يثبت التراجع العلميّ، والتبعية المطلقة بين

(1) ينظر: مصلوح، الأسلوب، ص 14-16.
(2) من أمثلة ذلك كتاب سوسير، الذي دخل العربية بخمس ترجمات متفاوتة في قيمتها العلمية، انظر لذلك: علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة. ص 200- 209.

جراثيم العمل اللسانيّ العربيّ، الذي لم يعد قادراً على تخليق الثقافة اللسانية الكافية لتنوير وعينا بأهمية هذا العلم وخطره(1).

وفي إطار الكلام على التأليف اللسانيّ، يلحظ محمد الأوراغيّ أن هذا التراكم المعرفيّ اللسانيّ بات "يشكّل.. عقبة لا تقلّ حدّتها عن صعاب الفقر المعرفيّ في نفس الميدان؛ إذ كلاهما يشكّل عائقاً يحدّ من وتيرة نمو العلم في الاتجاه السليم"(2) ويبيّن كيف يصبح التراكم المعرفيّ اللسانيّ عقبة موضوعية علائقية أمام نمو البحث اللسانيّ العربيّ، بثلاثة اتجاهات(3):

الأول: أن يعدّ عند بحث الظاهرة اللغوية، كلّ ما خلّفه النظار في اللغة من أعمال يعبّر عنها ويصفها، بصرف النظر عن اللغة المدروسة والعصر ولغة البحث، فلا يُهمَل شيء من تلك الأعمال تحت أية علّة أو حجة، لأنّ بوسع أي فريق من اللسانيين تلفيق مبررات (كذا)، واختلاق أسباب من أجل إبعاد تصورات غيرهم.

الثاني: أن ينشأ حول موضوع الدراسة الواحد المتعيّن بذاته، أكثر من نظريتين متغايرتين، يصل اختلافهما إلى درجة التضادّ، لأن كثرة الآراء والتصوّرات المتزاحمة، مع وحدة الموضوع والهدف يعوق الوصول إلى أنسب النظريتين الواقعتين على طرفي نقيض.

الثالث: افتعال الشهرة لنظرية لغوية في حقبة معينة، واصطناع التفوّق العلميّ أو التقني لها على غيرها.

وأظنّ أنّ ما تبصّره الأوراغيّ يرجع في عمومه إلى مشكلة تماهي الحدود النظرية لهذا العلم في العقلية العربية، ولا أبالغ إذا قلت: إنّ الكمّ المعرفيّ اللسانيّ الذي تقدّمه التآليف العربية اللسانية لا يُسعف، في كثير من جوانب الإطار النظريّ، في استجلاء الحدود البنائية لعلم اللسانيات الحديث، وهذا يؤدي إلى استمرار الفاقة اللسانية في الإطار التنظيريّ، مع تكثّر التآليف اللسانية العربية.

وفي إطار مشكلات غياب التأسيس النظريّ تنهد العقبة الموضوعية العوائقية التي اقترحها عبد السلام المسدي، وجوهرها: ثبات التصوّر عند كثير من رجال البحث وروّاد الفكر للسانيات وانحصاره، كلياً أو جزئياً، بحقل الصوتيات، وهذا العلم وإن كان له السبق في التبلور، ومقاربة الصياغة العلمية الصارمة، إلا أنه يظل قاصراً عن تقديم إدراك لنواميس الحدث اللغويّ، وبلوغ محرّكات الظاهرة الكلامية في نسيجها المتفاعل عضوياً مع مقولة الإنسان: متكلماً باللغة ومفكراً فيها، وقد صادف أنّ علم الصوت، من أدقّ العلوم التي اشتغل بها العرب؛ فنشأ من جراء ذلك شعور علميّ بالاستغناء عن سائر فصول علم اللسان الحديث(4)، بل إنّ الاستغناء عن بعض

---

(1) يرى عبد السلام المسدي أن أساس الأزمة في البحث اللساني العربي ترجع إلى: أولا- التقصير في وضع النظريات اللسانية وابتكار المناهج الاختبارية، وثانياً- الكسل في توفير الثقافة اللسانية في المؤسسات العلمية، بسبب تدني درجة وعينا بخطر هذه العلوم وأهميتها. ينظر: اللسانيات وأسسها المعرفية، ص11.

(2) الأوراغي، الوسائط اللغوية، ص 31.

(3) ينظر: الأوراغي، الوسائط اللغوية، ص 32- 33. وعلوي: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص 61.

(4) المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص 13.

المباحث اللسانية النظرية، تحت دعوى تصفية علم اللسان من علوم الفلسفة والمنطق، قد أضرّ، بتقديري، بسيرورة نمو هذا العلم وألحق به الشلل المنهجيّ، وحصر الفكر اللسانيّ العربيّ في قوالب تبعية، ومنعه من النفوذ إلى عمق الظاهرة اللغوية؛ ليتمكن من إنتاج نظرية لسانية منتمية إلى مقولات الإنسان العربيّ: متكلماً ومفكراً ومحرّكاً للظاهرة اللغوية، كما منعه من المشاركة الحقيقية في علاج المشكلات المعرفية العامة، وكلّ هذا أدّى إلى تأخّر القناعة بجدّة هذا العلم، وقدرته على علاج التساؤلات المعرفية والثقافية والفكرية الكبرى، في عالم الإنسان العربيّ.

ومن العقبات الموضوعية العلائقية التي اقترحها عبد السلام المسديّ[1]، ذلك الصراع بين الوصفية والمعيارية، وما رافقه من خلط منهجيّ، ولّد مشاكل أربكت دعاة المعيارية، وأرهقت أنصار الوصفية، واستنزفت قدرات بحثية، وآماداً زمنية، كان يمكن أن تثمر نظريات لسانية نشارك بها هذه الرقعة اللسانية العالمية المتطورة، لا سيما أن العلاقة المعرفية بين الوصفية والمعيارية لا يلزم أن تقوم على معاني التنافي أو التضادّ؛ إذ إنهما لا تنتميان على صعيد فلسفة المعارف إلى نفس المنطلق المبدئي[2]، ولعلّ مقترح استنطاق التراث اللسانيّ العربيّ واستمرار التعاقب اللسانيّ المقترح أجلَ الوصول إلى نظريات لسانية غير مكررة في المخزون الثقافيّ التراثيّ، ثم إدماج هذه النظريات المستنبطة في الموجود اللسانيّ العالميّ، كان تدبيراً علمياً ومنهجياً سليماً، من شأنه الحفاظ على كل هذه الطاقات المعرفية المهدورة في صراعات شكلية.

ويقترح المسدي كذلك عقبة، ربما يصلح أن تُصنّف في الجانبين، أقصد : العقبات الموضوعية العلائقية، والعقبات الموضوعية العوائقية، وهي مسألة اطّراد الظنّ بأنّ اللسانيات تستمدّ طرافتها وتميزها، من دراسة اللهجات، لا سيما أنّ بعض المستشرقين واللسانيين العرب، وظّف هذا العلم توظيفاً خرج به من المقاصد العلمية المحضة، ولا مهرب من الإقرار بأن بعض هذه الدراسات في اللهجات نزع منزعاً سياسياً أو عقائدياً، يَقصد به تقليص البعد الديني، والوزن الروحيّ الذي للعربية عند أهلها؛ فاحترز الناس عن اللسانيات؛ فعاقها تحرّزهم عن الانبعاث والتطور[3]

هذه العقبات الموضوعية وربّما غيرها مما يمكن استظهاره بمزيد مراجعات وتأمّل في الحالة اللسانية العربية، حملت العقل اللسانيّ العربيّ على الاقتناع بدور المنتظِر لما تجود به عقلية الآخر، وجعلته يكتفي بإعداد العدّة الذهنية لممارسة استهلاك مفاعيل النظر اللسانيّ الغربيّ وحسب، ثم إن ثقافة الانتظار والاستهلاك في العقل اللسانيّ العربيّ، جعلته ينحرف عن المنهج العلميّ؛ فوجد نفسه تبعاً لعدد كبير من النظريات والمناهج الغربية، لأنه لا يملك نظرية خاصّة به مستمدّة من الحضارة التي يريد أن ينطق باسمها[4]، وهذا أمر قد أخّر مثولنا في الخريطة اللسانية العالمية.

---

(1) المصدر نفسه، ص 13- 14.
(2) المسدي، اللسانيات وأهميتها المعرفية، ص 15.
(3) المصدر نفسه، ص 16- 17.
(4) منذر عياشي، قضايا لسانية وحضارية، ص 15.

كي يكون البحث اللسانيّ العربيّ فعالاً

تبرز المشكلة المعرفية الكبرى للتفكير اللسانيّ العربيّ في أنه غير فاعل، بمعنى أنه لا يشارك في بناء الحلول المعرفية العالمية، ولا في صياغة الإجابات عن التساؤلات الثقافية المتعلقة بمقولات الإنسان، بل ينحصر، كما مرّ، في ثقافة الاستهلاك والتقليد والانتظار، ويبقى رجع النظر في السؤال المعرفيّ العربيّ اللسانيّ مشروعاً، لا يجوز إهماله أو تأجيله، يلحّ من غير توقّف في سؤال مركزيّ: كيف نصل إلى تفكير لسانيّ فاعل ومؤثر في المشهد اللسانيّ العالميّ؟

ومن خلال الاستطلاع الآنف لأبرز مشكلات التفكير اللسانيّ العربيّ، يمكن أن نجعل الخطوة الأولى في طريق تحقيق هذا الطموح: تأسيس الوعي اللسانيّ في العقلية العربية، من خلال بناء حدود نظرية لهذا العلم، تضبط أصوله ومسائله وغاياته، والرجوع إلى الفكر اللسانيّ العربي السابق، واستطلاع مسائله، وضبط أصول التفكير فيه، وتحديد المسار التعاقبيّ لهذا التفكير، وتحليل المقولات اللسانية وملاحظة تطوّرها في أثناء رحلتها التعاقبية، أجلَ التأسيس لبناء نظرية متماسكة، لا تتكرّر فيها مقولات سبقَ أن استقرت في أحشاء التفكير اللساني الآنف، فنحن بحاجة إلى نظرية صادقة وموضوعية ومعالجةٍ منهجيّاً بالتطبيق والتجريب، وعلينا أن نتجاوز المراحل القائمة على مجرّد تجميع الظواهر، وتبويب الموادّ، وتكديس المعرفة، من غير تحليل وتفكيك وتركيب وتفسير وضبط للقوانين المحرّكة للظاهرة اللغوية[1]،علينا أن نتجاوز مرحلة الجمع إلى مراحلَ تقدّم تفسيراً للظواهر واستنباطا للقوانين المحرّكة للظاهرة اللغوية التي نتعنّى دراستها، كما علينا أن نتجاوز في رقعة المادة التراثية المدروسة حدودَ التآليف اللغوية، إلى فضاء أرحب قرّر فيه أصحابه مقولاتٍ لسانية، وصلت إلى مرحلة من النضج العلميّ تساعد على تكوين رؤية شمولية في الظاهرة اللسانية، كالذي نجده في تراثنا عند علماء: التفسير، وأصول الفقه، وعلم الكلام، والمنطق، والفلسفة، والمناظرة والجدل، استجابةً لمقولة شمولية المصدر اللسانيّ.

وعلى هذه الأعمال اللسانية العربية الحديثة أن تتبنّى سياسة لسانية قوامها الوعي والتوعية بخطر هذا العلم، وأن تكون وسيطاً فاعلاً في ربط العقل الغربي بنتائج الفحص اللسانيّ لنظريته اللغوية الخالصة، وبهذا نجعل من هذا العلم بعداً من أبعاد الفكر العربيّ، "فأعمالنا الألسنية، في التحليل الأخير، لا تعدو فعّالة ومثيرة إلا إذا اتخذت منحى توطيد ثقافة ألسنية عربية ذاتية، تعالج مشكلات لغتنا بكل ما تطرحه من أبعاد نفسية ومجتمعية، فالهدف الأخير إنما هو جعل الألسنية بعداً من أبعاد الفكر العربيّ، وفي هذا الاتجاه بالذات تنصبّ اهتماماتنا الألسنية"[2].

---

(1) منذر عياشي، قضايا لسانية وحضارية، ص 13.
(2) ميشال، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية، ص7.

ويبقى الكلام على علاقة النظر اللسانيّ العربيّ المفترض بالبحث اللسانيّ عند الآخر، وفي هذا الحقل يطرح التهامي الراجي بعض الأسئلة المعرفية[1]: كيف يمكن اللحاق بهذا العالم اللسانيّ المتقدم؟ وهل من الحكمة أن نبدأ، نحن العرب، بما انتهى إليه الغرب في هذا الميدان؛ لنقول: إنّنا التحقنا بالغرب؟ هل من الصواب أن نُؤلّف في المعارف العلمية التي مرّت في ثقافتهم بمراحل تراكمية معرفية كثيرة لا نعرف عن مراحل تكوّنها الكثير، كما هو الحال في النحو التوليديّ مثلا؟ ثم يجيب قائلاً: أعتقد أنّ من الحكمة أن نبدأ من النقطة التي منها انطلقوا؛ لنرسيَ هذا العلم الذي نريده عصرياً متطوراً على أسسه الطبيعية السليمة، فالتهامي الراجي يريدنا أن نبدأ من القواعد التي كانت تعرف بـ (القواعد اللغوية العامة والمعلّلة تعليلاً عقلياً)، تلك التي أنتجها بعض الرهبان عام 1660م، ثم يقول: "ولا يخامرني شكّ في أنّنا إن بدأنا من هنا، ثم تدرّجنا مع التيارات والمذاهب التي تلاحقت دون انقطاع ما بين 1660 و1977، نفهمها حقّ الفهم أولاً، ثمّ نعرّب مصطلحاتها بعد ذلك، مطبّقين ما يمكن تطبيقه منها على لغتنا، وذلك بوضع الأمثلة الملائمة لكل قاعدة أصبحنا قادرين على مسايرة كل ما يجدّ في علم اللغة بجميع فروعه، ونحن مع ذلك مطالبين[2]، وقت قيامنا بكل هذا، بوضع لغة واصفة منسجمة، نستعملها في محاضراتنا وندواتنا ومؤلفاتنا"[3].

ولعلّ ما يثير الغرابة في هذا الخطاب، هو محاولة ربط العقلية العربية بالظرف المعرفيّ الذي انطلق منه البحث اللسانيّ غير العربيّ، بمعنى أنه يؤسّس لانطلاق الفكر اللسانيّ العربيّ بزجّه في المحيط المعرفيّ الذي بدأ منه انطلاق فكر الآخر، بل إنه يحاول أن يحدّد بدقّة متناهية نقطة انطلاق الفكر اللسانيّ العربيّ، بالاستناد إلى تحديد نقطة انطلاق الفكر اللسانيّ الغربي، ويعمِد إلى تجنّب ربط هذا الفكر العربيّ بمحيطه المعرفيّ العربيّ، أو ظرفه الثقافيّ، مع أنّ صاحب الخطاب يعترف بالمخزون اللسانيّ العربيّ التراثيّ، ويرى أنّ "لنا، نحن العرب، في هذا الباب علماً باللغة قديماً، بل ركاماً من هذا العلم، فهل من الصواب أن نفرّط في هذا الكنز بدعوى أنْ جدّ جديد في الموضوع؟! أفلا يكون من الرصانة أن نحاول ربط الماضي بالحاضر، سيّما وأن (كذا) هذا الماضي مشرق وضاء؟"[4].

وإذا كان هذا التراث يحتفظ في أحشائه بمخزون معرفيّ لسانيّ، فهل قام اللسانيون العرب بتبصّر علميّ في هذا المخزون، بناء على منهجية شمولية في مراجعة المصادر اللسانية العربية التراثية؟ وهل انتهى البحث بهؤلاء اللسانيّين إلى قصور هذه المادة اللسانية التراثية عن أن تمثّل قاعدة التحليق اللسانيّ العربيّ؟ إنّ اقتراح ثقافة التهجين اللسانيّ في الذهنية المعرفية العربية، من خلال زجّها في رحم غريب؛ لهو أمر ثانويّ خلاف الأصل العلميّ، لا يجوز اللجوء إليه إلا بعد الإجابة العلمية الوافية الصادقة عن السؤالين الآنفين.

---

(1) ينظر: الهاشمي، التهامي الراجي (1977)، توطئة لدراسات علم اللغة، دار النشر المغربية، الدار البيضاء. ص 3-5.
(2) كذا في النصّ الأصليّ.
(3) الهاشمي، توطئة لدراسة علم اللغة، ص 5.
(4) المصدر نفسه، ص6.

وقد يحقّ لي أن أراجع في هذا المعرض، ما قدّمه الارتباط الذهنيّ بالتفكير اللسانيّ الغربي، للحالة اللسانية العربيّة، ولعل دراسة حافظ علوي تعالج هذا الطرح؛ ففي محيطنا العربيّ لم يفلح المنهج التاريخيّ المقارن الغربيّ بترسيخ قناعة بأهميته في المباحث اللغوية، لأسباب مختلفة[1]، وكذلك حاول الوصفيّون انتقاد اللغويّين القدماء؛ أجلَ تثبيت رؤاهم، فكانت أكثر اجتهاداتهم مجتزأة من التراث، غير أصيلة وغير ممثلة للتراث النحويّ العربيّ بكليته[2] وأما ظهور اللسانيات التوليدية في الثقافة العربية، فقد كان طفرة مما جعله مفتقداً إلى الأسس التي يفرضها تطور الاتجاهات اللسانية، وعانت اللسانيات التوليدية من غياب الانسجام بين ما تقدّمه من بحوث؛ لذلك فقد عجَزت عن تطوير أي نموذج من النماذج التوليدية[3]، والإشكالات المنهجية الواردة على اللسانيات التوليدية العربية تَرِد في أكثرها على اللسانيات الوظيفية[4].

وهنا تنهَد أسئلة يشرَعها النظر: هل كان سيختلف حال اللسانيات العربية المعاصرة المومى إليه، لو أنّنا رجعنا في تبعيّتنا المطلقة للفكر اللسانيّ الغربيّ إلى الوراء قليلاً أو كثيراً؟ وهل سينفي هذا الرجوع عن هذه البصائر اللسانية الغربية صفةَ الطروء والطفرة، وعدمَ الاستجابة للمعطيات الثقافية والحضارية والمعرفية الخاصّة بالعقل العربيّ، وهل سينفي الرجوعُ إلى نقطة زمانية محدّدة العجزَ عن هذا المنهج المعرفيّ، الذي ثبت عدمُ جدواه بالواقع والتجربة؟ فإذا عدنا إلى السؤال الرئيس: كيف تكون علاقة النظر اللسانيّ العربيّ المفترض بالبحث اللسانيّ عند الآخر؟ أفترض هنا أنّنا بمراجعات معرفية للمخزون التراثيّ اللسانيّ العربيّ، قد بدأنا من النقطة المعرفية المفترضة في هذا الطرح، بدءاً يُسلم إلى تكوّن بَذرة معرفية لسانية تستحيل بالدراسة والفحص جِذعاً معرفياً راسخاً يمُدّ الفكر الذي يطمح إلى التشارك مع فكر الآخر، بمنهجية علمية قِوامها النظر السليم في التراكم المعرفيّ اللسانيّ، وهذا النظر والفحص المعرفيّ يجب أن يمرّ، في تقديري، بأدوار معرفية مقترحة. هي:

أولاً: مرحلة جمع المقولات: ولا بدّ هنا من اعتبار ما نصَصْتُ القولَ فيه من شمولية المصدر اللسانيّ.

ثانيا: مرحلة دراسة المقولات من حيث: 1. المناهج الفكرية المتّبعة في تقرير هذه المقولات. 2. تصنيف المناهج بحسب الحقل المعرفيّ الذي تنتمي إليه: كعلم النفس، أو الفلسفة، أو علم الكلام، إلخ.

ثالثا: مرحلة المتابعة، وذلك بملاحقة هذه المقولات والمناهج في أدوارها المتعاقبة، وتسجيل عناصر التطور أو التغير في بنائها، إذا وجد، ومحاولة تعليل هذا التغير. ثم لا بدّ من اعتبار مرحلة التلاقي مع البصائر اللسانية العالمية؛ لفرْز ما هو مكرّر في بصائرنا وما هو

(1) علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص47 -50.
(2) المصدر نفسه، ص 253.
(3) المصدر نفسه، ص 317- 326.
(4) المصدر نفسه، ص382.

جديد، وهذا لا يكون إلا إذا قتلنا المناهج الحديثة في الدرس اللغوي بحثاً[1]، وبدأنا بتقبّل ما ثَبَت لدينا ورفض ما لم يثبت بأدوات الفحص المعرفيّ التي أنتجها هذا النظر المنهجيّ الذاتيّ، وبهذه التشاركية الفَاعلة التي تتقرّر فيها عناصر معرفية ذاتيّة، يمكن للألسنية العربية أن تكون فعّالة في الخريطة اللسانية العالمية، فإنّ علم اللسان الحديث عند الآخر ما كان ليصل إلى هذا المستوى من العالمية، من غير أن يستفيد من فكر الآخر، وبصائره اللسانية في جميع ميادين العمل اللسانيّ، ويُدخلها في نسيجه المعرفيّ، ويبني على هذا الإرث معانيَ تطوّره ومعالجاته المعرفية[2]، لكنّ هذه الإفادة مرتبطة بمنظور منهجيّ ذاتيّ سبقيّ، كما تقرّر.

هذه رؤية مستأنفة، في استراتيجيات تفعيل الحالة اللسانية العربية، لعلّ مزيداً من النظر والمراجعة فيها، يُسعف في تعميقها لتستحيل أداة وعي معرفيّ في تبصّر الواقع اللسانيّ، وتقرير عناصر التحرّر من ثقل هذه العوائق التي تعترض سير أنظارنا اللسانية، وتمنعنا من مواجهة مشكلاتنا اللسانية والمعرفية[3].

الدراسات اللسانية التراثية

ومن المقتضيات العلمية أن أقف عند الدراسات اللسانيّة التراثيّة، لأنّها الكاشف عن المذخور اللسانيّ التراثيّ، الذي يُعَوّل عليه في تقرير المادّة اللسانية المنظور إليها في بناء النظرية اللسانيّة العربيّة الذاتية.

ويشير مصطلح اللسانيات التراثية إلى تلك الدراسات التي تُعنى بإحداث نسبة معرفيّة ومنهجيّة وفكريّة بين الدراسات اللسانية الحديثة والمقروء التراثيّ اللغويّ والفكريّ؛ بغيةَ إعادة الكشف اللسانيّ عن الموجود اللغويّ والمعرفيّ في هذا التراث، واستئناف قراءته بأدوات كشفية مستحدثة تضيء كثيراً من فصوله، أو إحداث حالة تجذير ثقافيّ، من خلال إثبات سبق النظر التراثيّ في اجتراح المقولات اللسانية الماثلة[4].

(1) الهاشمي، التهامي الراجي، الثنائيات اللسانية، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص4.

(2) روبنز، ر.هـ (1997)، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ترجمة: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، العدد (227)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 21.

(3) يقول مصطفى غلفان واصفاً واقع الحالة اللسانية العربية: "إلا أن الجانب السلبيّ في هذه المواقف يتمثل في كون الذين لا يميزون بين اللسانيات والفكر اللغويّ القديم، لم يقدّموا أي تصوّر أو مقاربة جديدة لمعالجة قضايا اللغة العربية، تبعاً للتطوّرات التي حصلت في الدرس اللغويّ الحديث، ولم يتمكّن التحليل اللغويّ العربيّ، بعد، من حلّ كثير من المشاكل التي تعانيها اللغة العربية". غلفان، مصطفى (2010)، في اللسانيات العامة: تاريخها، طبيعتها، موضوعاتها، مفاهيمها، (ط1)، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص 104.

(4) للتوسّع ينظر: علويّ، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص 131- 135. ويقول هادي نهر: "وعلينا أن ندرس التراث العربيّ في هذا المجال بوصفه وثائق تحكي قصة الجهد العلميّ الفذّ الذي بذله العرب سعياً وراء إدراك كيفيّة دوران أثمن أدواته، ونعني بأثمن أدوات الإنسان.. اللغة". نهر، هادي (1998)، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، دار الأمل، أربد، الأردن، ص 10.

ويمكننا من خلال قراءة استجابة العقل العربيّ للبصائر اللسانية الوافدة أن نحدّد، منهجياً، أقسام هذه الدراسات، ويمكن هنا أن أستعين بتبصّر نهاد الموسى، في معالجة أقسام هذه الاستجابة[(1)]:

1. درس قضية من قضايا العربية، وقع في بدايات القرن العشرين، في سياق مواجهة مع أطروحات جاء بها الغرب، في سياق تقرير فكر استعماريّ في المنطقة، وهذا الدرس جاء للحفاظ على العربية، لكنّه يستنطق أصولاً لسانية صدر عنها أهل العربية، من غير أن يصرحوا بها.

2. اتّباع النظريات اللسانية التي طوّرها الغرب في سياقه الخاصّ، وقد قام على المزاوجة بين المنهج المستعار والموضوع العربيّ، واتّجه إلى إعادة وصف العربية، واستئناف النظر في قضاياها وظواهرها، في ضوء تلك النظريات.

3. مقارنة البحث اللغويّ العربيّ ونظريته الخالصة، بمقولات المناهج اللسانية المتعاقبة، وقد نجم في سياق ازدهار النظرية التحويليّة التفريعيّة السعي إلى إيجاد موقع للنظرية اللغويّة العربية في التبصّرات التحويليّة هذه، من خلال تقرير مشابه بينهما.

4. استثمار حصيلة الجهود اللسانيّة لتشكيل وعي علمي بالعربية، وتشكيل وعي لسانيّ عام، وإقامة جدل بين الموضوع والمنهج، تَطرح فيه العربية أسئلتها الخاصة، في ضوء الوعي اللسانيّ العام، الذي يمكّن العربية من تحقيق ادّغام الخاصّ العربيّ في العام اللسانيّ، والمشاركة في النظرية اللسانية من هذا المدخل.

بالنظر في أقسام الاستجابة هذه، يمكن تقسيم هذه الدراسات أقساماً ترجع إلى العلّة المنهجيّة، وإلى العلّة الغائيّة، ومُحَصّلُها:

1. الدراسات التي تقرّر السياق الخاصّ للعربية، وتميّز التفكير اللغويّ العربيّ، وتجيء هذه الدراسات في سياق المحاورة مع التبصّرات اللسانية المحدثة، التي تشبه البدع اللغوية المرفوضة بنظر هؤلاء، ولكنها تستنطق، في تسيار النظر، مقولات لسانية كامنة بالقوّة في أحشاء المقروء الثقافيّ العربيّ، من غير أن تقصد إلى ذلك في علّتها الغائيّة.

2. الدراسات التراثية النظريّة، التي تعدّ قراءة شمولية (بحسب حافظ علوي)، وتسعى في سبيل إثبات السبق والتفوّق العربيين في هذا المجال[(2)]، إنّها محاولة تجذير البصائر اللسانية الماثلة في محيط النظر التراثيّ، فهي حالة تثاقف عكسيّ، تسعى في سبيل المحافظة على تميّز العقل العربيّ في هذا الحقل من البحث المعرفيّ اللغويّ.

3. دراسات الكشف اللسانيّ في التراث، وهي تلك الدراسات التي تحاول تسليط كواشف لسانية جديدة على الموجود اللغويّ التراثيّ؛ بغيةَ إضاءة جوانبه، ومحاورة أنحاء النظرية اللغوية

---

(1) تراجع في: علوي، حافظ إسماعيليّ والعناتي، وليد (2009)، أسئلة اللغة، أسئلة اللسانيات: حصيلة نصف قرن من اللسانيات في الثقافة العربية، الدار العربية للعلوم، بيروت، ص270.

(2) علويّ، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة. ص140.

العربية التراثية بأدوات لسانية محدثة، يمكن أن تكشف عن بصائر تراثية، ما كانت لتنكشف بأدوات الكشف التقليدية.

4. الدراسات اللسانية التراثية البنائية، وهي تلك الدراسات الأصيلة التي تسعى في سبيل جمع المقولات اللسانية، والجهود اللغوية النظرية، التي يحتويها المقروءُ التراثيّ اللسانيّ العربيّ، بغض النظر عن البصائر اللسانية الماثلة، فهذه دراسات تسعى إلى وصف الواقع اللسانيّ التراثيّ كما هو في سياقه الثقافيّ الخاصّ، من غير تأثّر بالبصائر اللسانية الماثلة، فإن وافق التبصّر التراثيّ مقولةً لسانية ماثلة، فيكون هذا حالةً من الإفضاء إمّا: بالتوارد المعرفيّ، أو بتأثّر التبصّر المُحْدث بالموجود التراثيّ، ولكن ليس من العلل الغائية لهذه الدراسات، إثباتُ حالة الإفضاء هذه، أو النظر في أسبابها ودواعيها.

وللدراسات التراثية أهمية عظيمة في التبصّر في إيجاد حلّ لحالة التأزّم اللسانيّ في العقل العربيّ، بحسب أطروحتي، لا سيّما تلك التي تسعى في سبيل الكشف البنائي المستأنف عن جوانب الحداثة اللسانية في المقروء التراثيّ العربيّ، وذلك لأنّ من شأنها الكشف عن مادّة لسانية صالحة للبناء عليها في عملية التعاقب اللسانيّ، هذه العمليّة التي أفترض أنّها المنهج العلميّ السليم الذي نبتني عليه نظرية لسانية خالصة، تصحّح للعقل اللسانيّ العربيّ المشاركة اللسانيّة مع العقل اللسانيّ العالميّ. وكنتُ قد بيّنتُ في دراستي (التفكير اللسانيّ عند علماء العقليات المسلمين) أهمية هذه الدراسات، وهذا ملخّص ما ذكرتُ ثَمّ[1]:

1. أنّها تجنب الفكر الإنسانيّ تكرار المقولات المعرفيّة التي سبق أن توصل إليها البحث، فتمكننا هذه الدراسات من تحديد نقطة الانطلاق في بحوثنا، من غير استنزاف لطاقاتنا المعرفية والبحثية.

2. تعين هذه الدراسات على تعديل الرؤية اللسانية الحديثة، وربما على رفضها أو قبولها، لأنها تسعف في توفير قوانين التأثير اللسانيّ عبر سيرورة الظاهرة اللغوية، بمعنى أنها تشير إلى محركات الظاهرة اللغوية والقوانين المؤثرة فيها، وتقرر الثابت منها والمتغيّر، وأهمّ عوامل هذا التغيّر.

3. تساعد هذه الدراسات في إعادة التبصّر في الموجود التراثيّ، وتساعد على تقرير أدوات بحث لسانيّة، ربما كانت ماثلة في بصائر المتقدمين، وقد غابت عن أنظار المتأخرين.

4. تعدّ هذه الدراسات العاملَ المركزيّ في الوصول إلى نظرية لسانية ذات سياق خاصّ، تفضي إلى موجود معرفيّ لسانيّ، مصحّحٍ لحالة التشارك اللسانيّ مع التبصّرات اللسانية الحديثة.

(1) للتوسّع ينظر: الزبن، عماد أحمد (2014)، التفكير اللسانيّ عند علماء العقليّات المسلمين: العضد الإيجيّ، والسعد التفتازانيّ، والشريف الجرجانيّ. نماذج، (ط1)، دار النور المبين، عَمّان، ص36- 38.

5. تلفت هذه الدراسات الأنظار إلى كون الفكر اللسانيّ العربيّ قابلاً لامتصاص مفاعيل البحث اللسانيّ الحديث، وهذا يرسخ قابليته لإنتاج مثل هذه الأنظار؛ وهو أمر من شأنه أن يدفع العقلية العربية إلى تبني هذا العلم، والعمل على ترسيخ عناصره في البنية الثقافية العربية.

شروط النظر اللسانيّ في التراث

تُقدّم هذه الدراسات في علّتها الغائيّة، مادّة لسانية صالحة للبناء عليها، وتكشف عن المقولات اللسانية الكبرى الكامنة في التراث، وبمقدار تحقّق شمولية الكشف اللسانيّ، تتحقّق التكاملية في توصيف النظرية اللسانية التراثيّة، التي نبتني عليها منهج التعاقب المفضي إلى النظرية اللسانية العربية الحديثة، تلك النظرية التي نسعى في سبيل عرضها في مشهد التشارك اللسانيّ العالميّ، لذلك فنحن أمام أزمة التلقي اللسانيّ من التراث، وليست حقيقة أزمتنا في التلقي من الآخر، كما يبدو لبعض الباحثين[1]، فالأصل أن نكون مع بصائر الآخر، في موضع المشارك والناقد، نؤوب إلى نظريتنا التي أفضت إليها عملية الكشف اللسانيّ والتعاقب المنهجيّ، والتبصّر في المادّة اللسانية، وهذه النظرية الذاتية التي بُنيتْ في سياقها الثقافيّ الخاصّ، تُفرز بالمقتضى العلميّ، أدواتِ نظر ووسائل محاكمة لسانية منهجية، تساعدنا على نقد بصائر الآخر اللسانية، والتشارك معه في تقرير النظريات اللسانية، والمقولات اللغويّة.

لذلك؛ فيلزم بالاستتباع المنهجيّ أن نقسّم الدراسات اللسانية التراثية الآنفة بحسب العلّة الغائيّة هذه، قسمين: الدراسات المركزية، والدراسات المساندة. وأقصد بالدراسات المركزيّة، تلك التي تقدّم جهداً بنائياً، يتقوّم باستنباط المقولات اللسانية الكبرى والفرعية الكامنة في التراث العربيّ، وهذه دراسات أساسيّة لأنّها تقدّم المادّة اللسانية التي تعدّ رقعة الانطلاق التعاقبيّ للوصول إلى النظرية اللسانية العربية الحديثة، ثمّ الدراسات المساندة التي تتقوّم بتجذير التبصّر اللسانيّ الحديث في العقل التراثيّ، أو تلك التي تحاول أن تستعين بالنظر اللسانيّ الحديث في إضاءة جوانب الظاهرة اللسانية العربية، وأن تحاور بها أسئلة العربية، وتعالج جدلها. وبناء على هذا التقسيم تكون الدراسات اللسانية المركزية محورَ الجهد المفضي إلى تحقيق الغاية المومى إليها، الأمر الذي يوجب علينا دعمها، وإنفاق الجهد البحثي في إعدادها في جامعاتنا ومعاهدنا العلمية.

ثمّ أنتقل إلى الشروط العلمية في هذه الدراسات اللسانية التراثية، والعوائق المنهجية التي تعترض تَسيارها في سبيل الإهداف على الغاية منها، وأبدأ بالشرط المركزيّ الذي يتعلق بالمادة التراثية نفسها، فالمادّة التي تخضع لتفسيرات متعددة يصعب الجزم بتفسير محدد لها يساعد على تأسيس المقولة اللسانيّة، وهذا الإشكال المعرفيّ الأبرز الذي واجه تشومسكي (*Chomsky*) في نظره التراثيّ، فقد تعنّى معالجة اعتراض قويّ على أنظاره في اللسانيات الديكارتية، وهو أنّ بصائر ديكارت القليلة تخضع لتفسيرات مختلفة غير محددة[2]، فالإشكال المنهجيّ يتفاقم إذا

(1) ينظر مثلاً: علويّ، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة. ص80.

(2) Chomsky.N. (2009). Cartesian Linguistics: A Chapter in the History of Rationalist Thought, edited by: James Mc Gilvray, Cambridge University Press. P 58.

كانت المادّة المدروسة مقولة على التشاكك، وتضعف معها محدّدات الاستدعاء التفسيريّ؛ بسبب قابلية تكثّر الإنتاج المعنويّ[1].

ومن الشروط المنهجية هنا شمولية مصدر الرؤية اللسانية في التراث، فمن عيوب بعض هذه الدراسات، الاقتصار على جهود اللغويين فقط، أو الاقتصار على المصدر المتوافر والمطبوع فقط، وهذا مَصِيرٌ إلى قصور الرؤية اللسانية، فالمقتضى العلمي هنا، يُلزم بالنظر في جهود المنظّرين في جميع الفنون التي تتصل بالبصائر اللسانية، كجهود العقلانيين والمفسرين والأصوليين وغيرهم، ويقضي المنهج العلمي بعدم الاقتصار على المصدر المتوافر، بل إنّ النظر في التراث العربيّ المخطوط يحمل خبئاً لسانياً، يعدّ قنطرة جوهرية في الكشف عن النظرية اللسانية التراثية[2].

ومن الشروط المنهجية التي يعزّ تحقيقها في مثل هذه الدراسات شرط الموضوعية، فكثير من الباحثين يعمِدون إلى النظر في المقروء التراثيّ من خلال زجاج النظر الحديث؛ فينفذون إلى التراث بأحكام مسبقة، وأحكام جاهزة، وهذا يجرّ إلى غَصْب النصّ، ومصادرة دلالته، والحقّ أنّ هذا العيب المنهجيّ ماثل في كثير من رقع النظر اللسانيّ التراثيّ في جهودنا[3].

أضف إلى ذلك شرط الإحاطة بمناهج علماء التراث، فمن عيوب بعض هذه الدراسات، أنّها "تنقصها المعرفة الشاملة بمناهج القدماء في بناء معارفهم واستدلالاتهم، ومن ثَمّ نعتقد أنّ التأويل المعقول للغويات العربية، ينشأ حينما يَستحضر التحليلُ الشرطَ التاريخيّ والمعرفي العام، الذي انبثقت منه التآليف القديمة"[4].

ويمكن أن أضيف في هذا الإطار ضيق الرؤية اللسانية، وسطحية الهدف المعرفيّ فبعض هذه الدراسات تسعى إلى مجرّد إثبات السبق المعرفيّ للعقل اللسانيّ العربيّ، والحقيقة أنّ هذه الجهود لا تخلو من فائدة معرفيّة، لكنّها قليلة الجدوى في تحقيق طموح التشارك اللسانيّ المومى إليه، فإذا انضمّ إليها جمود في البحث اللسانيّ التراثيّ البنائيّ الذي أشرتُ إليه آنفاً، فقد تساعد على فرض عقلية لسانيّة إقصائية، تحجزنا عن متابعة بصائر الآخر، وتقصينا عن حالة التشارك اللسانيّ معه؛ فتعظُم الجهود وتنزُر العوائد، فنحن بحاجة إلى رؤية لسانية واسعة، نستطلع لها خبايا هذا التراث الثرّ، ونفحص أنحاءه بقصد استنباط الكليّات اللسانيّة والقوانين المحرّكة للظاهرة اللغوية، والمناهج المتّبعة في تنظيم المقولات اللسانية في التراث، ثمّ تقرير عناصر التطوّر في هذه الأنظمة اللسانية[5].

---

(1) ينظر: الزبن، عماد، التفكير اللسانيّ عند علماء العقليات المسلمين، ص38.
(2) ينظر: صالح، عبد الرحمن الحاج (2007)، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر. ج1، ص 16.
(3) صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص 17.
(4) علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص407.
(5) ينظر: الزبن، عماد، التفكير اللسانيّ عند علماء العقليّات المسلمين، ص 39-40.

خلاصة النظر

حاولتْ هذه الدراسة أن تثبتَ أنّ أزمة اللسانيات العربية تكمن في التردّد بين عقلية الإقصاء الرافضة لكلّ وافد معرفيّ وعقلية الإذعان المعرفيّ، والاسترخاء النظريّ، التي تنتظر عوائدَ بحوث الآخر، أجلَ فرضها على الحالة المعرفية العربية، ثمّ إحالتها معايير ضبط لجودة التفكير اللسانيّ العربيّ، وإذا تبصّرنا في عناصر الفكاك من هذه الأزمة المعرفية، وجدناها تدور على الجهد في تنظيم البحوث والأنظار في سبيل اجتراح نظريات لسانية تنتمي إلى السياق الثقافي الخاصّ، وهذا أمر يستدعي توافر الجهود وتوفّر العقول على إعادة قراءة التراث اللسانيّ، من خلال استراتيجيات الدراسات اللسانية التراثية البنائية، المستحضرة لشرط شمولية المصدر اللسانيّ، والإعداد لمحاكمة معرفية مجرّدة وموضوعية للمقولات اللسانية المستنبطة، وإظهار مناهج النظر اللسانيّ عند الأقدمين، من أجل البناء على هذه الجهود، باستحضار شروط الحداثة اللسانية، المتقوّمة بالعامل البينيّ والتشاركيّ مع علوم كثيرة قد ازدهرت، ورفدت النظر اللسانيّ الحديث بعناصر كشف فعّالة في العاملين: النظري والتجريبي.

فحقيقة أزمتنا اللسانيّة تكمن في التلقي من التراث، أكثر من كونها أزمة التلقي من الآخر، وبتقرير المنهج البنائيّ في الدراسات اللسانية التراثية، ومنهج التعاقب المعرفيّ، نخلص من عقدة الجدال اللسانيّ المزدوجة، التي تتقوّم (بحسب عبد القادر الفهري) بالتردّد بين الرفض المطلق، أو التقديس المطلق لبصائر الآخر اللسانية(1)، ونبتني حالة تشارك فعّال، من خلال نظريات لسانية ذاتية منفتحة على التقبّل في المشهد اللسانيّ العالميّ.

الخاتمة

حاولتُ في هذه الدراسة أن أستطلع معالم أزمة اللسانيات في العقل العربي الماثل، من خلال تنظيرٍ معرفيّ لحالة الأزمة، ثمّ تطبيقه على أزمة العقل اللسانيّ العربي الماثل، باستظهار عناصر هذه الأزمة وعوامل الفَكاك المقترحة، وقد خلصت الدراسة إلى النتائج المعرفيّة الآتية:

1. تعدّ حالة الإذعان المعرفيّ من العناصر المركزية لحالة التأزّم اللساني في العقل العربي الماثل، التي يجب أن تعالج بتفعيل العقل اللساني العربي المنتمي إلى سياقه الثقافي الخاصّ.
2. العمل على علاج العقلية اللسانية الإقصائية، التي تتبنّى الرفض المطلق لبصائر الآخر، وتنطلق من قاعدة حضارية ذات بعْد منغلق.
3. ضرورة دعم الدراسات اللسانية التراثية البنائية، التي تضمن اجتراح حالة تعاقب معرفيّ، نصل بها إلى نظريات لسانية ذاتية، نبتيها على سياقنا الثقافيّ الخاصّ.
4. ضرورة ضبط الدراسات اللسانية التراثية بالشروط المعرفية والمنهجية، التي تضمن صحة الاتّجاه نحو الأهداف اللسانية المخطّط لها.

(1) تقدّم اللسانيات في الأقطار العربية (1991)، (وقائع ندوة جهوية، الرباط)، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت. ص 17.

5. الانفتاح على عناصر الدعم اللسانيّ المتمثلة في العلوم النظرية والتطبيقية الكاشفة عن كثير من أنحاء النظرية اللغوية.
6. نقد الدراسات اللسانية التراثية بمنهج التعديل والتطوير، والنظر في الفوائد المترتبة عليها، وليس بعقلية الرفض والمنع والتشكيك بمطلق الجدوى.

References (Arabic & English)

- AlAwraghi, M. (2001). *Language Means (Alwasa'et Allughaweyah)*, 1st ed.Dar AlAman, Rabat.
- Harb, A. (2001). *Theory idols and Freedom Spectrum (Asnam Alnazareya wa Atiaf Alhurrya)*, 1st ed, Arabic Cultural Center, Casablanca.
- Robins, R.H. (1997). *A Brief in History of Linguistcs in the West (Muktasar Tareekh Elm Allugha Fi Elgharb)*. Translated by A. Awad. Knowledge world Series, V(227), National Council for Culture, Arts, and Literature, Kuwait.
- AlZabin, E. (2014). *Linguistic Thought of Muslim Rationalist Scholars: ALEji, AlTaftazani, and Al Jurjani (Altafkeer AlLissani end Ulama alukayat almuslimeen: ALeji, AlTaftazani, and AlJurjani)*,1st ed, Dar Alnoor ALmubeen,Amman.
- Zakarya, M. (1982). *Generative and Transformative Linguistcs and Arabic Grammer (Al-Alsunyah AlTawledeyah Altahweleyah wa Kawid Allugha AlArabyah)*.1st ed. Universty Establishment for Researsh and Publishing, Beirut.
- A;Su'ran. M. *Linguistics: An Introdution for Arabic Reader (Elm Allugha: Mukadema Lilkari' AlArabi)*, Dar Al Nahda, Beirut.
- Saleh, A. (2007). *Studies in Arabic Linguistics (Bhooth wa Dirassat fi AlAlsunnya AlArabya)*, Algerian Council for Arabic, Algeria.
- Alawi. H. & Anati, W. (2009). *Language Questions, Linguistics Questions (Assilat Allugha, Assilat Allissanyyat)*. 1st ed, Aldar AlArabya Liluluom.
- Alawi, H. (2009). *Linguistics in Arabic Contemporary Culture (Allisanyyat fi Althakafah AlArabya Almu'aserah)*, 1st ed, Dar Alkirab Ajadeed.

- Ayyashi, M. (1991). *Issues in Linguistics and Civilization (Kadaya Lisanyyah wa Hadarya)*, 1st ed, Dar Tlas,Damascus.
- Gulfan, M. (2010). *In General Linguistics; History, nature, topics and concepts (Fi Allisanyyat Al'amma; Tarekuha, tabi'tuha, Moudo'tuha, Mafahimuha)*. Dar Alkitab Aljadeed, Beirut.
- Thomas, K. *The Structure of Scientific Revolution (Bnyat Althourat AlElmya)*. Translated by Hyder Haj Ismael, Arab Organization for Translation, Beirut.
- Al Masdi, A. (1981). *Linguistic Thinking in the West Civilization (Altafkeer Al lisani fi AlHADARA Algharbya)*. Aldar AlArabya Lilkitab.Tunisia.
- AlMasdi, A. (1986). *Linguistics and its Cognitive Foundations (Alliasnyat wa Ussusha Alma'refya)*. Aldar Altunissya, Tunisia.
- Masloh, S. (1992). *Style: A linguistic and Statistical Study, (AlUsloub: Dirasah Lughaweya wa Ehsa'ieah)*: 3rd ed. Alam Alkutub. Cairo.
- Ibn Nabi, M. (1992). *The Issue of Ideas in the Islamic World (Mushkilat Alafkar fi Al ALAM Alislami)*, 1`st ed, Translated by Bassam Barakah and Ahmad Shabo, Dar Alfi; r Almu; sir, Beirut.
- Nahr, H. (1998). *Social Linguistics of Arabs (Allisanyat Alejtima'iah end AlArab)*. Dar Alamal, Irbid, Jordan
- AlHashmi, A. (1997). *Introduction to Linguistics Studies (Tawtiah li Dirasat Elm Allugha)*. Dar Alnashr Almaghrebyah. Casablanca.
- AlHashmi, A. *Dual Linguistics (Althunaiyat Alisanyah)*, Dar Alnashr Almaghrebyah. Casablanca.
- Linguistics Progress in Arab Countries (Takadom Allisanyat fi Alaktar AlArabyah). A Symposium conducted in Rabat, Dar Algharb Alislami,Beirut.
- Chomsky. N. (2009). *Cartesian Linguistics: A Chapter in the History of Rationalist Thought*, edited by: James Mc Gilvray, Cambridge University Press.